UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

التفكير البلاغي في القرآن بين الإمام عبد القاهر الجرجاني والعلامة الزمخشري: دراسة تأثر وتأثير

A Theoritical Review of Qur'ānic Diction as Observed by Jurjānī and its Impact on Zamakhshārī

by
Dr. Sayed Abdül Salām Bāchā
Associate Lecturer, Department of Arābic, International Islāmic University Islāmabād, Pakistan
Email: agha21179@gmail.com

Dr. Ḥabīb Üllah Khān
Assistant Professor, Department of Arābic, International Islāmic University Islāmabād, Pakistan
Email: habibullah@iiu.edu.pk
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1102018

Abstract:

Qur'ānic Ījāz can only be understood if well versed with the diction of the Holy Qur'ān. Nobody can claim that he or she has a full command over the Holy Qur'ān, understands its lexical, semiotic, syntactical and rhetoric features because it is a divinely authored book well beyond the scope of human understanding. Right from outset time to this day all commentators of the Holy Qur'ān agree on this point that if anyone intends to get accurate meaning of any word or verse of the holy Qur'ān, he or she should first properly consult the works of the Mufassirīn or expert opinions of the interpretors of this holy scripture as it is verty dificult for a common reader to understand it without any consultation. On one hand, the holy Qur'ān seems to be an easy book, yet it poses great difficulty in understanding the underlying message or get to the depth of its meanings. In short, it is an easy text for a common reader because the verses of the holy Qur'ān contain difficult lyers of meanings and than what makes it prominent is its rhetorical language and rich examples of insights. This mericulous book can be approached from two different perspectives i.e theoretical and empirical manner. Allāma Abd al-Qāhir al-Jurjānī applied the theoretical approach to understand the miricales of th Holy Qur'ān while Allāma Zamakhshārī resorted to the empirical access to the holy scripture and the later has been inspired by the former in his book Tafsīr al- al-Kashāf .

Keywords: *Arabic Rhetoric, Ījāz, Tafsīr, al-Jurjānī, Zamakhshārī*

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

المدخل:

حينما بدأ أهل السنة والجماعة يسهمون في فضح الشبهات المؤسَّسَة على علم الكلام المعتزلي في تفسير كتاب الله العلي العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه له لحافظ، أخذ سلطان المعتزلة على التفسير العلمي يتضعضع، وزاده وهنًا حينما بدأ أهل السنة وهم كانوا سوى المعتزلة يصبون اهتماماتهم على تفسير كتاب الله – جل وعلا – فقاموا بتأليفات قيمة، وتفاسير مستقيمة. حتما إنهم استعانوا في استخراج نكت علمية بعلم البلاغة، فاستندوا إليه، واعتضدوا به في استخراجاتهم العلمية واستنتاجاتهم الثمينة، وفي الوقت الذي كانت النكت البلاغية والدقائق اللطيفة تعرض في مجالس الشريف الرضي المتوفى سنة **436**هـــ ظهر في أفق السماء من كشف آفاقا جديدة في علم البلاغة، ووسَّع جوانب معارفها حيث بلغت شهرتُه الآفاقَ وملأت بقاعَ الأرض كلها كان ذلك العبقرى الإمام عبد القاهر الجرجاني عالما جِهْبِذاً من الجهابذة العظام، متضلِّعا في المعارف، خبيرا بغوامض الأمور البلاغية، نَقَّادا محترفا.صار العلماء بِهُداه يقتدون في العصر الذي فسد الذوق الأدبي فيه.

يُعَدُّ العلامة الزمخشرى من الألمعيين الذين فهموا بلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني وأدركوا مغزاها، ووعوا فحواها، ثم أنتجوا فأنتجوا مطبقين إياها على القرآن الكريم. وتعود إليه رئاسة حمل لواء مطبقى بلاغة الإمام عبد القاهر الجرجانى بكل حنكة وذكاء ولطف.

كان للإمام عبد القاهر الجرجاني اطلاع واسع على التراث الأدبي والنقدي والبلاغي، فاستفاد الكثيرَ من المعلومات من قراءاته المكررة والمعادة، وكان مثقفا بارعا في النحو العربي فوضع قاعدة البلاغة على النحو العربي وجعل لها أساسا معزَّزا، فقرأ الخليل وسيبويه والزجاج وثعلب وأبا علي الفارسي وابن جني وغيرهم من أعلام النحو العربي كما قرأ في النقد والبلاغة الجاحظَ وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وأبا هلال العسكري والقاضي عبد العزيز الجرجاني وغيرهم.

فالإمام عبد القاهر الجرجاني كان نحويا أكثر منه بلاغيا، وعلى الرغم من ذلك فإنه ما حظي بشهرة وافرة فيه، وما نال مكانةً وحُظْوَةً منه، وما علا شأْنُه فيه، بل على العكس إنه قد حَظِيَ مترلةً مرموقةً ومكانةً رفيعةً وحُظْوةً لا نظيرَ لها حتى يومَنا الحاليِّ لتقديمه فكرةً عريقةً في المجد والسؤدد في بلاغة الكلام وفصاحته، وبخاصة بلاغة القرآن الكريم ما عُرِفَ مؤخَّراً بـــ نظرية النظم أو علم النظم القرآني، صارت فكرةُ "النظم" بذرةً أولَى في ترويج البلاغة العربية ونهوضها، وأمضت نقطةَ تحوُّلٍ مؤخَّرا في تاريخ البلاغة العربية.

وضع الإمام عبد القاهر الجرجاني وضعا دقيقا لعلمي البلاغة: المعاني والبيان في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة". تحدث في "أسرار البلاغة" عن وجوه الحسن ومواقعه ومواطنه في

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

الكلام، وبحث في دلائل الإعجاز عن الموضوع نفسه إلا أنه قد زاده ببحث آخر وهو الحديث عن الإعجاز القرآني. إنه أَلَّفَ رسالةً سماها "الشافية" وبَيَّنَ فيها حقيقة الإعجاز واستغرق الفكرةَ واستوعبها وأتى بما يثبتها من القرآن الكريم.

تميز أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" بتدقيق المسائل وتحليلها واستقصائها بنظر عميق، وعرضها عرضا فلسفيا واعيا، ودورها في إثراء الذوق وتنميته في عمل أدبي، وتَبَيُّنِه في محاسن الكلام ومزاياه وعيوبه، والبحث فيه بحثا مدعوما بالقضايا النفسية والوصفية والتاريخية والاجتماعية والجمالية والنقدية والأدبية. وقد وضعت في الصفات السابقة صفة "الأدبية" في الأخير، ليس ذلك من عفو الخاطر، بل إنه ليرمز إلى أن "الأدب" كان محور كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة أي: لم يفصل الإمام عبد القاهر الجرجاني الفنون البلاغية الثلاثة: المعاني والبيان والبديع عن الحقل الأصيل وهو الأدب، إنه ربطها ربطا وطيدا بأدبية النص: شعرا أو كان نثرا.

ولأن للإمام عبد القاهر الجرجاني دور كبير في إثراء علوم البلاغة العربية وتطويرها وتقديمها تقديما خالصا لا يشوبه شيء من العجماء ولا يفسده خلل ولا يحتله ما هو منكَر أو مهجور، عَدَّه الجمهور واضع البلاغة العربية ومؤسسه، فاحتذاه العلماء واقتدوه لتأثيره البالغ بهم.

ومن أبرز العلماء الذين تأثروا بالإمام عبد القاهر الجرجاني هو العلامة الزمخشري صاحب الكشاف، إنه يمت إلى الأدب والأدبية بصلات بارزة، لا يخفى على الناظر إليه خافية إلا أنه صاحب علم وعرفان في البلاغة العربية من جهة، وصاحب مذهب جدلي اعتزالي من جهة أخرى. لقد رُزِقَ العلامة الزمخشريُّ مواهبَ الإمام عبد القاهر الجرجاني من صدق النظرة ولطافة الحس ورقة الاستشفاف في تحليل بلاغة القرآن الكريم إلا أن الإمام قد رُزِقَ انطباعا في التعبير واسترسالا في التوجيه واطرادا في النسق، ما استطاع العلامة الزمخشري أن يبلغ شأوَ الإمام في ذلك وهذا ما يميِّز الإمامَ من العلامة الزمخشري.

ولعل الأمر يتجلى وينكشف برمته عند من ينقِّب عن الفكرة بنظرة فاحصة وعقل ثاقب حيث اتكأ صاحب الكشاف العلامة الزمخشري على الإمام عبد القاهر الجرجاني واعتمد عليه اعتمادا كليا واعتضد به اعتضادا محتوما لا يخفى على من ينقب عن الأمر وينظر إليه بنظرة ذكية وعقل ثاقب. جاء صاحب الكشاف، العلامة الزمخشري بنكت لطيفة في بلاغة القرآن الكريم في طوايا تفسيره، الكشاف للاستناد إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني، فاستقى من فيض خاطره وسقاه الآخرين.

العلامة الزمخشري

هو جار الله محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشرى، كان أعجميا، ملتزما بالمترع الاعتزالى،

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

ومتعصبا للعروبة والعربية من أجل كونها لغة كتاب الله الخالد. ولد بزمخشر من إقليم خُوارَزْم الفارسى سنة **467**هـــ، وكان مذهب الاعتزال مزدهرا في ذلك العصر، ولهذا اعتنقه العلامة الزمخشرى.

توفي العلامة الزمخشرى عام **538**هـــ، وكان للعلامة الزمخشرى ممتعا بإحدى رجليه، ولما دخل بغداد سأله الدامغانى الفقيه الحنفي عن سبب قطعها، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أننى في صباى أمسكت عصفورا وربطته بخيط في رجله وانفلت من يدى فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط فتألمت أمى لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطع رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عملا أوجب قطعها[1].

وكان العلامة الزمخشرى حنفي المذهب، أحب الإمام الشافعى ونوه بمكانته، وذكر عنه أنه من أعلام العلم وأئمة الشرع، ورؤوس البلاغة.

الإمام عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، من أسرة فارسية، نشأ في كنفها من المولد إلى الوفاة، وأقام بجرجان مع أسرته، وهي يومئذ حافلة بمختلف الاتجاهات الفكرية التي تلخص حياة المسلمين الفرس، فحصل العلوم العربية والقرآنية التي كان لها الأثر الكبير في ثقافته الكبيرة، وفي ذوقه الفني الرائع، ولم تذكر كتب التراجم عن مولده شيئا، وكل ما ذكروه كان عن وفاته وأنه توفي عام **471**هـــ على اختلاف الآراء.

مؤلفات عبد القاهر:

برع الإمام عبد القاهر في علوم اللغة العربية فألف في النحو والصرف، والبلاغة والإعجاز، والعروض وغيرها، إذ ألّف كتاب المغنى في النحو، والمقتصد، والإيجاز، والجمل، والعوامل المائة، والعمدة في التصريف، ثم رسالة في شرح فاتحة الكتاب، وكتاب المعتضد في إعجاز القرآن، والرسالة الشافية في إعجاز القرآن، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والمختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبى تمام.

وسنعرض لكتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، لأن علماء البلاغة بعد الإمام عبد القاهر قد اقتفوا أثره وتتلمذوا على ما كتبه ونهجوا نهجه، ولخصوا كتابيه بما فيهما من أثر عظيم له ريادته في فن البلاغة.

تأثر عبد القاهر وأثره:

تأثر عبد القاهر بكثير ممن سبقوه من علماء البلاغة أمثال: المبرد في الكامل، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، ونقل عنهما كثيراً في الأسرار، والدلائل، وتأثر كذلك بالآمدي، ونهج نهجه في

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

التعليق على كثير من الأبيات، وتأثر بالقاضي الجرجاني أكثر من غيره، ولعله يرجع ذلك إلى الأثر البيئى الجرجانى الذى جمع بينهما، وبالتالى دفعه نحو تتلمذه على يدى القاضي فتأثر وتثقف.

وتأثر الإمام أيضاً بأبى هلال العسكري صاحب الصناعتين، وبالجاحظ كثيراً (بل إن كثيراً من أمثال عبد القاهر وشواهده مأخوذة من البيان والتبيين، وذلك ظاهر جلى)[2].

وممن تأثر بهم عبد القاهر: ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة، وابن رشيق القيروانى في العمدة، وغيرهم.

أثره فيمن بعده

كان تأثير الإمام عبد القاهر فيمن بعده قوياً جارفاً، وهذا التأثير يمكن أن يستخلص فى شعب ثلاث:

⟵ الأول: اتجاه يغلب عليه التقعيد والضبط كالرازي والسكاكي ومن دار في فلكه.

⟵ الثاني: اتجاه يغلب عليه التحليل الذي يعتمد على الذوق الأدبي كابن الأثير والعلوي.

⟵ الثالث: اتجاه يطبق بلاغة الإمام تطبيقاً دقيقاً كالعلامة الزمخشري في تفسيره الكشاف الذي يعد مدرسة متميزة وممتدة في التفسير [3].

نماذج التأثر والتأثير

وإليكم من النماذج التي تبلور تأثر العلامة الزمخشري بالإمام عبد القاهر الجرجاني وتأثيره فيه بكاملها، وفى الباب أمثلة كثيرة، وشواهد عديدة، ونوجز الحديث عنها فى مسائل هامة للبلاغة العربية عموما والبلاغة القرآنية خصوصا:

الأول: مسألة ترك الذكر أو الحذف

الثانى: مسألة القصر بإنما وما وإلا

الثالث: مسألة التقديم والتأخير

الرابع: مسألة المجاز

الأول: أنموذج ترك الذكر أو الحذف:

قال العلامة الزمخشري في تفسير آية سورة القصص وهي:

"وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ". [4]"

فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: "يَسْقُوْنَ" و "تَذُودَانِ" و "نَسْقِى"؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. ألا ترى أنه إنما رحمهما؛ لأنهما كانتا على الذياد وهم على

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

السقي. ولم يرحمها لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً، وكذلك قولهما "لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعاء" المقصود فيه السقي لا المسقيُّ" [(5)].

والمعنى نفسه الذي جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني قائلا: "وإن أردت تبيّيناً لهذا الأصل، أعني وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها شوب، فانظر إلى قوله تعالى: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ" ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: "وجد عليه أمة من الناس يسقُون" أغنامهم أو مواشيهم، "وامرأتين تذودان" غنمهما، وقالتا: "لا نسقي" غنمنا، "فسقى لهما" غنمهما.

ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كلِّه إلاّ أن يُترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقاً. وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يُصدر الرعاءُ، وأنه كان من موسى – عليه السلام – من بعد ذلك سقي. فأما ما كان المسقيُّ؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافه. وذاك أنه لو قيل: "وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما"، جاز أن ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: "ما لك تمنع أخاك؟" كنت منكراً المنع، لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذاالنحو من الروعة والحُسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه وتركِ ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه"[(6)].

يدل التوافق والتطابق والتماثل والتداخل بين هذين النصين بكل وضوح أن العلامة الزمخشري تأثر تأثرا كبيرا في تحليل الآية القرآنية (وأخواتها) تحليلا بلاغيا بالإمام عبد القاهر الجرجاني إلا أن ما جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني هو أكثر وضوحا وأقرب إلى الفهم وأغنى فائدة وأعنى عناية وأدنى اقتناعا للقارئ المعاصر مما جاء به العلامة الزمخشري.

الثاني: أنموذج القصر بإنما وما وإلا:

يقول العلامة الزمخشري – أيضا – في تفسير آية من سورة فاطر، قال –تعالى–:

"وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ". [(7)]: "فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ قلت: لا بدّ من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم "الله" وأخرت "العلماء" كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

تعالى: – وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله – وهما معنيان مختلفان"[8].

بينما الإمام عبد القاهر الجرجاني فيقول في المسألة نفسها بأسلوب مقنع واضح: "وههنا كلام ينبغي أن تعلَمه، إلا أني أكتب لك من قبله مسألةً، لأن فيها عوناً عليه. قوله تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" في تقديم اسم الله عز وجل معنى، خلاف ما يكون لو أُخِّر. وإنما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في "ما" و"إلا" وحصَّلت الفرق بين أن تقول: "ما ضرب زيداً إلا عمرو"، وبين قولك: "ما ضرب عمروٌ إلا زيداً".

والفرق بينهما أنك إذا قلت: "ما ضرب زيداً إلا عمروٌ" فقدمت المنصوب، كان الغرض بيان الضارب من هو، والإخبار بأنه عمرو خاصَّة دون غيره. وإذا قلت: "ما ضرب عمرو إلا زيداً، فقدمت المرفوع،كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه "زيد" خاصة دون غيره.

وإذ قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية. وإذا اعتبرتها به علمت أن تقديم اسم الله إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم، ويُخبَر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم. ولو أخِّر ذكرُ اسم "الله"، وقُدّم "العلماء" فقيل: "إنما يخشى العلماءُ الله"، لصار المعنى على ضدِّ ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشيِّ من هو، والإخبار بأنه الله –تعالى– دون غيره. ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله –تعالى– مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله –تعالى– أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله –تعالى–. وهذا المعنى، وإن كان قد جاء في التنزيل في غير هذه الآية كقوله تعالى: "وَلَا يَخشَونَ أَحَداً إلّا الله" فليس هو الغرض في الآية، ولا اللفظ بمحتمل له البتة. ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم وسوَّى بين قوله تعالى: "إنّما يَخشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَمَاءُ " وبين أن يقال: إنّما يخشى العلماءُ الله. وإذا سوّى بينهما، لزمه أن يسوِّي بين قولنا: "ما ضرب زيداً إلا عمرو"، وبين: "ما ضرب عمروٌ إلا زيداً. وذلك ما لا شبهة في امتناعه" [9].

لو أمعن القارئ في النصين السابقين، نص العلامة الزمخشري، صاحب الكشاف، ونص الإمام عبد القاهر الجرجاني لأدرك أن كلام العلامة الزمخشري مختصر، وفيه شيء من غموض وإجمال وخفاء ما يعيق طريق وصول القارئ إلى درك المسألة وفحواها، بينما كلام الإمام عبد القاهر الجرجاني فإنه مفصَّل ومزوَّد بالبراهين المقنعة والحجج الغانية، إنه جاء بأمثلة توضِّح جوانبَ المسألة ومداركَها، ويصل من خلال شرح المسألة وتفسيرها إلى الإبانة عن الغرض البلاغي في الآية حيث يجعل القارئَ يبلغه بكل يسر وسهولة.

الثالث: أنموذج التقديم والتأخير

يقول العلامة الزمخشري في تفسير آية من سورة الأنعام، قال تعالى:

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ" [(10)]: "إن جعلت "لله شُرَكَاء" مفعولي "جعلوا"، نصبت "الجنّ" بدلاً من شركاء، وإن جعلت "لله" لغواً كان "شُرَكَاء الجن" مفعولين قدم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟، قلت: فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك مَن كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء"[(11)].

وهذا المعنى عين المعنى الذي جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني بكل بسط وتفصيل قائلا: "ومثال ذلك قوله – تعالى –: "وَجَعَلُوْا لِلّهِ شُرَكَاءِ الجِنّ" ليس بخافٍ أن لتقديم "الشركاء" حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب، أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخَّرت فقلت: "وجعلُوا الجِنّ شركاء لله"، وأنت ترى حالك حال من نُقل عن الصورة المُبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر، إلى الشيء الغُفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل. والسبب في أن كان ذلك كذلك، هو أن للتقديم فائدة شريفة، ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير بيانه، أنَّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجنَّ شركاء، وعبدوهم مع الله –تعالى–، وكان هذا المعنى يحصُل مع التأخير حصولَه مع التقديم، فإن تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن.

وإذا أخر فقيل: "جعلوا الجن شركاء لله"، لم يُفد ذلك، ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله – تعالى –، فأما إنكار أن يُعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه. وذلك أن التقدير يكون مع التقديم: أن "شركاء" مفعول أول لجعل، و "لله" في موضع المفعول الثاني، ويكون "الجن" على كلام ثانٍ، وعلى تقدير أنه كأنّه قيل: "فمن جعلوا شركاء لله – تعالى –"، فقيل: "الجن"، وإذا كان التقدير في "شركاء" أنه مفعول أوَّل، و "لله" في موضع المفعول الثاني، وقع الإنكار على كون شركاء لله – تعالى – على الإطلاق، ومن غير اختصاص شيء دون شيء، وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، لأن الصفة إذا ذكرت مجرَّدة غير مُجراةٍ على شيء، كان الذي تعلَّق بها من النفي عامّاً في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة.

فإذا قلت: "ما في الدار كريم"، كنت نفيت الكينونة في الدار عن كلِّ من يكون الكرم صفة له. وحكم الإنكار أبداً حكم النفي. وإذا أُخِّر فقيل: "وجعلوا الجن شركاء لله"، كان "الجن"، مفعولاً أول، و"الشركاء" مفعولاً ثانياً وإذا كان كذلك، كان "الشركاء" مخصوصاً غير مطلق، من

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

حيث كان محالاً أن يُجري خبراً عن الجن، ثم يكون عاماً فيهم وفي غيرهم، إذا كان كذلك، احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى "الجن" خصوصاً، أن يكونوا "شركاء" دون غيرهم، جلّ الله – تعالى – عن أن يكون له شريك وشبيه بحالٍ.

فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قُدِّم "الشركاء"، واعتبره فإنه ينبِّهُك لكثير من الأمور، ويدلك على عِظَمِ شأن "النظم"، وتعلَم به كيف يكون الإيجاز به، وما صورته؟ كيف يُزاد في المعنى من غير أن يُزاد في اللفظ؟ إذ قد ترى أن ليس إلا تقديم وتأخير، وأنه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى، ما إن حاولته مع تركه لم يحصل لك، واحتجت إلى أن تستأنف له كلاماً، نحو أن تقول: "وجعلوا الجن شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك من الجن ولا من غيرهم"، ثم لا يكون له إذا عُقل من كلامين من الشرف والفخامة، ومن كرم الموقع في النفس، ما تجده له الآن وقد عُقل من هذا الكلام الواحد" [(12)].

والغرض الأساسي من المجيء بالاقتباسين: الاقتباس من تفسير العلامة الزمخشري: الكشاف ثم الاقتباس الطويل من دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني لعرض الموازنة بالإيجاز بين أسلوبيهما من طرف، وعرض جوانب المسألة برمتها من طرف آخر من خلال الحديث عن تلك المقارنة، فالمعنى متحد والملفوظ مختلف، والتوافق على هذا القدر الكبير في دراسة المضمون والفحوى يدل على أن العلامة الزمخشري قد تأثر – على وجه كبير – بالإمام عبد القاهر الجرجاني، غير أن أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني فإنه في غاية الطلاقة والجزالة والرصانة والفصاحة والبيان.

الرابع: أنموذج المجاز:

تأثر العلامة الزمخشري بالإمام عبد القاهر الجرجاني في باب المجاز، فقال في تفسير آية من سورة البقرة: فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ".[(13)] "فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟، قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشترين" [(14)].

قام الإمام عبد القاهر الجرجاني بتحليل هذه الآية مبينا المجاز فيها، يقول: "اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها، ولكن تريد معنى ما هو ردف و شبيه. فتجوزت بذلك في ذات الكلمة، وفي اللفظ نفسه. وإذ قد عرفت ذلك: فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية ولا تعريض.

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

والمثال فيه قولهم: "نهارك صائم، وليلك قائم"، و"نام ليلي، وتجلّى همي". وقوله تعالى: " فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُم " وقول الفرزدق:

سقتها خروق في المسامع لم تكن عِلاطاً ولا مخبوطة في الملاغم

أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في ذوات الكلم، وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكام أجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك: "نهارك صائم، وليلك قائم" في نفس صائم وقائم؟، ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة "ربحت" نفسها، ولكن في إسنادها إلى التجارة. وهكذا الحكم في قوله: "سقتها خروق"، ليس التجوز في نفس "سقتها"، ولكن في أن أسندها إلى الخروق. أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولابربحت غير الربح، ولابسقت غير السقي، كما أريد بـــ"سالت" في قوله: "وسالت بأعناق المطي الأباطح" غير السيل.

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله هاهنا. فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله: "فنام ليلي وتجلّى همي"، كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: "فنمت في ليلي وتجلّى همي"، كما لم يكن الحال في قولك: "رأيت أسداً" كالحال في "رأيت رجلاً كالأسد". ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزية، وصورة الفرقان بين قوله تعالى: " فما ربحت تجارتهم "، وبين أن يقال: "فما ربحوا في تجارتهم" .

وإن أردت أن تزداد للأمر تبيُّناً، فانظر إلى بيت الفرزدق:

يحمي، إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعـــلُ

وإلى رونقه ومائه، وإلى ما عليه من الطُّلاوة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة، وقل: "نحمي إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل، ثم اسبر حالك، هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟"[(15)].

امتاز أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني عن العلامة الزمخشري وأمثاله في باب المجاز وأخواته، إنه انفرد بروعة العبارة واتصف بجمال الكلام وفتنة الوضوح وبهاء السلاسة والرقة والانسجام. خلا كلامه من أي تعقيد أو غموض، فالقارئ يدرك بمجرد إلقاء النظر على نصه فحواه ومرماه ومغزاه، إلا أن الأول اختصر في الكلام عن المسألة وأوجزها واستشهد بالمثل العربي في المعنى

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

الذي يقصده، أما الآخر فإنه أطال النظرَ وأمعنه ونظر إلى المسألة مليّا، وهذا الفرق بين الأسلوبين من أجل الفرق في غرضيهما، كان مقصد الأول هو تفسير القرآن الكريم، ومن خلاله الإشارة إلى القضايا البلاغية، وكان مقصد الإمام عبد القاهر الجرجاني هو توضيح القضايا البلاغية، ومن خلالها ذكر الآي القرآنية واستشهد بها وأشار إلى ما هو المقصود الأهم والأولى من القراءة في البلاغة العربية فهم كتاب الله العزيز، والإيمان بإعجازه، والأسلوب الأمثل للأول الاختصار فاختصر، وللآخر الإطالة فأطال.

الخاتمة:

توصل البحث أخيرا إلى بعض النتائج، ومن أهمها ما يلى:

- إن القرآن الكريم لا يمكن فهمه فهما مستقيما دونما تدقيق بلاغة أساليبه.
- لا يستغنى القرآن الكريم عن البلاغة العربية، لأن معانيه ناجمة عن تلك البلاغة القديمة: العربية الجاهلية.
- إن قضية التأثر والتأثير قضية ساخنة بين القدامى والمحدثين، والمثل الأعلى فى الدراسات القرآنية هو العلامة الزمخشرى حيث تأثر تأثرا كبيرا بالإمام عبد القاهر الجرجانى.
- عرف العلامة الزمخشرى بأنه على اعتزاله اعتنق مذهب الإمام عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة القرآنية، فأخذ النقاد شرقا وغربا يعدونه المطبق الأول للبلاغة النظرية التى قننها ونظرها الإمام.
- اشتهر العلامة الزمخشرى بالمدرسة البلاغية المسندة إليه أيضا بين الأوساط العلمية والنقدية لفرط ذكائه وحذق عطائه.
- يعد الكشاف للعلامة الزمخشرى من عمدة كتب التفسير البلاغية، واحتل منزلة سامية بين الكتب لعمقه ودقته.
- ثمة إشكاليات أخرى تكتشف مواطن جديدة للدراسة والتحليل، وهى إلى أى مدى تأثر العلامة الزمخشرى بالإمام؟ وإلى أى مدى يصح التعبير عن بلاغة مذهب العلامة الزمخشرى بالبلاغة القرآنية الاعتزالية؟ وإلى أى مدى يصح اعتبار العلامة الزمخشرى مدرسة مستقلة من الإمام فى البلاغة القرآنية؟

أسئلة مطروحة تحتاج إلى بحوث مستجيبة لها.

UOCHJRS, ISSN: 2616-6496, Vol.2 | Issue 1 |July-December 2018
DOI: 10.33195/uochjrs-v2iIII1042018

الهوامش والإحالات

1. انظر ترجمته: معجم الأدباء (إرشاد الريب إلى معرفة الأديب)، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، عام **1414**ه، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ج **19**، ص **126**. وإنباه الرواة على أنباة النحاة، جمال الدين، أبو الحسن، علي بن يوسف، القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، عام **1406**ه، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ج **3**، ص **265**.
2. أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، (ب.ت)، مطبعة المدني بالقاهرة – مصر، ج **1**، ص **57**.
3. خطوات البحث البلاغي والنقدي بين النشأة والمنهج، محمد إبراهيم عبد العزيز شادي ، الطبعة الأولى، عام **1919**م ، مطبعة التركي، الطنطا، ص **180.18** .
4. سورة القصص، الآية: **23**.
5. الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو (جار الله)، الطبعة الثالثة، عام **1407**ه، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ج **3**، ص **442**.
6. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، عام **1422**ه، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص **161–162**.
7. سورة فاطر، الآية: **28**.
8. الكشاف، ج **3**، ص **633**.
9. دلائل الإعجاز، ص **338–339**.
10. سورة الأنعام، الآية: **100**.
11. الكشاف، ج **2**، ص **114**.
12. دلائل الإعجاز، ص **286–288**.
13. سورة البقرة، الآية: **16**.
14. الكشاف، ج **1**، ص **68**.
15. دلائل الإعجاز، ص **381–383**.

@ 2017 by the author, Licensee University of Chitral, Journal of Religious Studies. This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).